المحاضرة 06

التيارات الأنثروبولوجية

تمهيد:

لقد شهدت الأنثربولوجيا كعلم منذ نشأتها مجموعة من التيارات الفكرية، والتي غالبا ما قام أحدها كرد فعل على الاتجاه الفكري السابق عنه، وهذا ما يدل على فاعلية البحث الأنثربولوجي وسعيه للوصول إلى تفسير أسرار الإنسان وأعماله في كل زمان ومكان، ومحاولة دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية، والتوصل إلى قوانين ونظريات صادقة وصحيحة في هذا المجال، لذلك فقد ساد ساحة البحث الأنثربولوجي مجموعة من التيارات والنظريات.

أولا: النظرية التطورية :

إن للنزعة التطورية جذورا قديمة جدا، نجدها في ذلك التنوع من فلسفة التاريخ التي طورها " شافان،Chavannes " والمكرسة للمراحل التي يقطعها الإنسان في سيره نحو الحضارة، وقد ألفت نفسها مدعومة بقوة ابتداء من عام 1859 من خلال مؤلفات " داروين" البيولوجية، والتي كان غرضها وصف الأطوار الكبرى التي مرت بها الإنسانية، منذ الإنسان الأول حتى المجتمعات الحديثة.

وهناك من يرى أن مفاهيم التطور في الدراسات والأبحاث الثقافية التي هيمنت على التفكير الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر يمكننا القول أنها تعود إلى محطات بحثية وفكرية أسبق من الوقت الذي ظهرت فيه آراء الداروينية، فهي تعود إلى فلاسفة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر بالخصوص الذين أقروا أن البشرية في تطور دائم باتجاه التقدم، وأن المجتمعات تسير وفق منحنى تصاعدي من الحالة البسيطة نسبيا من حيث تنظيمها إلى الحالة الأكثر تعقيدا واختلافا، وكان فلاسفة التنوير من أمثال تورغو"1727-1781" وكوندورسيه الذين شكلوا من خلال بعض طروحاتهم منطلق الآراء التي أسهمت في تكوين نظرية التطور الثقافي، فحسبهم أن تاريخ البشر يمكن النظر إليه من زاوية الارتقاء والتطور من المرحلة البسيطة إلى مرحلة الحضارة المعقدة.

وحسب النظرية التطورية فالمجتمعات البشرية كافة تطورت انطلاقا من أصول هي" نظرية وحدة الأصل ، Monogéniste" أو متشابهة على الأقل " نظرية تعدد الأصل، Polygéniste" وقد خيل إلى العديد من الباحثين بان كل المجتمعات كانت مرشحة لأن تختار نفس الأطوار بنوع من الضرورة الداخلية وشبه البيولوجية.[1]

وبذلك سعت التطورية إلى البحث في أصل ونشأة كل المؤسسات والنظم التي هي عند الإنسان يعيش بمقتضاها، فتمت أبحاث حول الزواج، العائلة، القرابة، الملكية الاقتصادية، النظم القانونية، الدين، وكان للعلامة والباحث الأنثربولوجي " لويس

[1]- Pierre Erny; ethnologie de l éducation;

مورغان" أبحاث جادة في هذا المجال، وكان للاتجاه التطوري تأثيرا فيما بعد على المدرسة الماركسية. هذه الأخيرة أقر مفكروها أن الإنسانية تمر بمراحل منها: المجتمع البدائي، الرق، الإقطاع، الرأسمالية، ثم تصل الإنسانية إلى مرحلة الاشتراكية.

إذا كانت النظرية التطورية قد حققت السيادة والريادة في القرن التاسع عشر على مستوى الفكر الإنساني، فإنها مع ذلك قد واجهت انتقادات علمية مركزة وواسعة النطاق، منها أن النظرية التطورية: كانت نتائجها التي توصلت إليها في دراستها للثقافات الإنسانية غير صحيحة، وذلك لأنها اعتمدت على الحدس والتخمين، وتعميم الأحكام المطلقة دون أن تستند إلى براهين وقرائن علمية واقعية امبريقية، وبذلك ومع بداية القرن العشرين، دب عليها الاضمحلال، وحلت محلها في ساحة النقاش الفكري والعلمي اتجاهات فكرية ونظريات علمية جديدة، اشتغلت واهتمت بدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية البشرية من حيث نشوئها وتحديد عناصرها ومكوناتها. بالإضافة إلى تتبع مراحل تطورها، وظهرت تجليات ومعالم هذه الأفكار الجديدة مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين، وكانت في مجملها ثلاث نظريات أو اتجاهات متفاعلة فيما بينها درست أسس ومنطلقات وأهداف العلوم الاجتماعية عموما، وقامت وبفاعلية كبيرة بإرساء دعائم الأنثربولوجيا.

ثانيا النظرية الانتشارية:

يمثل الاتجاه الانتشاري أو كما يسميه البعض بالاتجاه التاريخي المرحلة الثانية بعد المرحلة الأولى من تاريخ النظرية الأنثروبولوجية، ويمثل المرحلة الثانية هذه علماء وباحثون أمريكان، انضووا تحت اتجاه جديد، حيث رفض الاتجاهات التطورية الأولى، وانتقدوا المنهج الذي كان متبعا، حيث حسبهم يفتقد للعلمية وصدقية النتائج المتوصل إليها كونه منهج تاريخي ظني.

وكان العلماء والباحثون الذين ينتمون إلى المدرسة الأنثروبولوجية الأمريكية الحديثة قد رفضوا المنهج التطوري الظني، وساندوا المنهج التاريخي الجديد، ومن بين هؤلاء نذكر روبرت لوي Robert Lowie ، وفرانس بواس Franz Boas وكروبر Krober ،ويرى روبرت لوي Robert Lowie انه يتوجب فهم المدارس التاريخية في ميدان الاناسة بطريقة تدريجية، وذلك من خلال الاستناد إلى الأسس الافتراضية أو الواقعية التي أدت إلى ولادتها ونشوؤها، وهذه المدارس في مجملها تتعارض تعارضا واعيا مع التطورية، و ترفض أسسها وعقائدها مؤكدة أنها مجرد تبسيطات ذاتية تؤدي إلى تحريف وتزييف الوقائع، ذلك أن التاريخ الواقعي شديد التعقيد يأبى أن يبتسر في تلخيصات بسيطة كتلك التي يقدمها "لويس مورغان، Lewis Morgan ". وكما كتب "لوفير، Laufer " أن التطور لا يجري وفق اللوحة التصنيفية الذاتية التي ترسمها المدرسة الاتنولوجية التي تاهت في متاهات التطورية.[2]

و في إطار الاتجاه التاريخي، ظهرت في أوروبا نظريتان حول تفسير انتشار عناصر الثقافة نذكرهما كما يلي:

أ- النظرية الانتشارية ذات الأصل الواحد للثقافة :

[2]– روبرت لوي : تاريخ الاتنولوجيا من البدايات حتى الحرب العالمية الثانية

كرد فعل للاتجاه التطوري برز الاتجاه الانتشاري فقد افترض المناهضون للتطور، و هم أصحاب الاتجاه الانتشاري أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عن احتكاك ثقافة، و عملية استعارة و انتشار و التي من خلالها انتقلت جوانب الثقافة من مجتمع أو من جماعة بشرية إلى جماعة بشرية أخرى، و جوانب الثقافة سواء أكانت مادية أم معنوية، فقد تستعير جماعة من جماعة أخرى الوسائل و المخترعات المادية كالوسائل المستخدمة في زراعة الأرض، أو عربات النقل، أو طراز السكن، أو السلاح ،....الخ أو الثقافة في جانبها المعنوي كالأفكار و القصص ، و العادات ....الخ و بناء على ذلك فإذا لاحظنا إن هناك تشابه في النظم الاجتماعية و العادات في المجتمعات المختلفة، فلا يمكننا أن نفسر ذلك بالتنشئة للإنسان، و إنما توصل إليها شعب واحد في مكان معين، و في فترة زمانية من تاريخه ثم، انتقل بعد ذلك كله أو بعضه من ذلك المجتمع إلى المجتمعات الأخرى.[3]

وبرز عدد من الباحثين الأنثربولوجيين، الذين اجروا مجموعة من الأبحاث الميدانية، في أنحاء مختلفة من العالم للبرهنة على صحة ما تواصلوا إليه من أفكار و قواعد و قوانين، ومن بين هؤلاء الباحث الأنثربولوجي "باستيان" (1826-1905) فكان قد اعتمد على الملاحظة كوسيلة لجمع المعلومات و المعطيات، وكان رحالة عمل كطبيب على ظهر سفينة، و من خلال رحلته إلى مناطق مختلفة من العالم ركز على الحياة الدينية عند بني البشر فلاحظ أن هناك تشابه كبير بين المجتمعات .

انتشرت هذه النظرية في انجلترا بزعامة "اليوث سميث،Smith،E "(1871-1937) و تلميذه "وليام بيري، w.Perry"(1889-1949) [4]

ب- النظرية الانتشارية ذات الاصل الثقافي المتعدد المراكز:

لقد كان من دعاة هذه النظرية العالم الألماني "فريتز جريبنر،F.Graebner (1877-1943) الذي اهتم مع "ولهم شميدت، W.Schmidt" (1868-1954) بظاهرة انتشار السمات الثقافية بين المجتمعات، و رفضها فكرة تلقائية الثقافية، وقدرة كل شعب على أن يتوصل بنفسه إلى الابتكارات والاختراعات المختلفة، و أوصلهما مسار الدراسة إلى فكرة الدوائر الثقافية، وحاولا وضع تخيط يجمع المجتمعات المختلفة في دوائر ذات مستويات ثقافية متباينة[5].

وكان "ويسلر" أول من استعمل مصطلح (الدائرة الثقافية) ، بمعنى الأمر أو الشيء الذي نشأ من التقاء الحضارات الإنسانية مع بعضها البعض، وهذه الدوائر الثقافية غالبا ما تتفاعل بسبب عمليات الذوبان والانصهار مما ينتج تشكيلات مختلفة، "[6]

3- حسين عبد الحميد رشوان :الأنثروبولوجيا في المجالين النظري و التطبيقي

4- فتحية مُحَمَّد إبراهيم : مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان،

5- فتحية مُحَمَّد إبراهيم :المرجع السابق.

6هرسكوفيتر،ميلفيل : أسس الانثربولوجيا الثقافية،

لقد لاقت المدرسة الانتشارية عدة اعتراضات منها المبالغة في دور الانتشار بالنسبة للعناصر الثقافية ونسبتها إلى المراكز إشعاعية واحدة، ومنها التسرع في الحكم، بوجود اتصالات ثقافية بين المجتمعات دون توفر ما يدل على هذا الاتصال بصورة يقينية، ومنها العودة إلى إعادة تركيب الثقافة الإنسانية و رسم مراحل تطورها والطرق التي سلكتها في انتشارها ، وكان من نتيجة ذلك إن الاتجاهات الجديدة في الانثربولوجيا لم تعد تهتم بتتبع انتشار الثقافية ككل، وإنما تركز جهدها في دراسة ثقافات بعينها، مع الاهتمام بمعرفة التغيرات التي طرأت عليها نتيجة الاحتكاك الثقافي مع غيرها ، وتتبع انتشار السمات الثقافية لهذا الانتشار[7]

ولم يكن التفسير الانتشاري للثقافة مقتصرا على أوروبا وحدها ، فقد ظهرت في أمريكا جهودا فكرية في هذا السياق، وتوجهت بالنقد للاتجاه التطوري للثقافة ويرى أصحاب المدرسة الأمريكية أن الخصائص التي تميز هوية ثقافية ما يمكن القول أنها وجدت بداية في مركز جغرافي محدد ثم انتشرت إلى مناطق أخرى.

أ.د. رحاب مختار

7 – فتحية مُحَمَّد إبراهيم :المرجع السابق.